

من توسكانا الى سيرتا

(From Tuscany to Cirta, by Akila Tchier)

من روزا الى أحمد:

استيقظت على مقطوعة الفصول الأربعة ليفالدي بعد أن أخبرتني أنها نعمة منبهك اليومي. استيقظت و أنا أحلم بيوم مختلف قليلا, يوم يشبه ذلك اليوم الذي التقيت فيه . قررت أن أخرج من المنزل رغم أنني في اجازة عائلية و كانت وجهتي المكان الذي حاك أول عقدة حب بيننا: ساحة مايكل أنجلو. رغم الجو الخريفي الذي شرع يذثر مقاطعة توسكانا هذه الأيام فقد تمكنت الشمس من بسط بعض السيطرة و تمكنت أشعتها البرتقالية من تغليف المكان. حركة الشوارع لم تهدأ بعد و لكن أعتقد أنك محق, الهدوء لا يليق بتوسكانا لأنها ستكون رتيبة جدا. تناولت قهوتي في مقهى روزانو الفاخر و عملا بنصيحتك فقد أرفقتها بقطعة كرواسون ذهبية. في بقايا البن و الشوكولاتة ارتسمت معالم وجهك و أدركت أنك شاب من عالم آخر, مخلوق يطاردني خياله في كل زاوية و في كل تفصيل. أردت أن أحفظ تقاسيم وجهك ظهرا عن قلب حتى لا تعاود ظهورها في أشياءي الخاصة و دون تردد شرعت ألحق ما تبقى في كوب القهوة ذلك بأصابعي غير عابئة بأشمئزاز الحاضرين و قد أحسست فعلا بنوع من الانتشاء و الرضا المؤقتين. حثنت الخطى الى ساحة مايكل أنجلو و اخترت مكانا جيدا يسمح لي بروية تمثال ديفيد و قبة سانتا ماريا و جسر بونتي فيكيو في نفس الوقت. أغمضت عيني و اقتادنتي الذاكرة الى الجزء الأكثر اشراقا في عقلي: لقاء و شرارة حب بدأت و انتهت في يوم واحد. حين فرغت من السباحة وسط حكايتنا العائدة من الماضي قررت أن أكتب لك. أكتب لك لأنال اجابة شافية على سؤالين مهمين: لماذا اختارك قلبي دوننا عن الناس؟ و لماذا وافقت على طلبك في أن نتواصل عن طريق البريد بدل الوسائل العصرية المتاحة؟

قبل أن أعود الى المنزل, اتجهت الى كورتنى و عانقت أزهار دوار الشمس كما طلبت و أخذت معي واحدة للذكرى.

مع حبي: روزا

"هي في المساء وحيدة و أنا وحيد مثلها "

محمود درويش

كانت الشمس تودع فلورنسا في اللحظات التي كنت أتجول فيها بين شوارعها الضيقة و قد بدأت أشعتها تنحسر عن البلاط العتيق ببطء. أمشي وحيدا مع أغنية لفرانك سيناترا و أنا أقضم قطعة خبز ايطالي ساخن و ألوح بزهرة دوار الشمس التي أخذتها من الحقول الجنوبية للمقاطعة. لم أحس بالوقت و هو يمضي حتى وصلت الى ساحة مايكل أنجلو و قد كانت مكتظة عن آخرها. بقيت أبحث عن مكان يسمح لي برؤية انعكاس الجسر على المياه. توسكانا لا تختلف كثيرا عن مدينتي قسنطينة. الأزقة الضيقة، الجسور و الآثار الرومانية و المعابد الدينية. في كلتا المدينتين راوي الحكاية هو الصخر العتيق الذي ألهم السكان. فلورنسا مهد النهضة الأوروبية و قسنطينة مدينة العلم و العلماء. جلست أخيرا أراقب الجمال الذي ينطق به كل متر في تلك الساحة و قد انبعث صوت توتو كوتونيو بقوة و هو يغني عن ايطاليا. من بين الجموع المحتشدة لمحتها. كانت منحنية تحاول التقاط صورة لتمثال داوود. هبت ريح خفيفة و بعثرت شعرها الكستنائي في كل اتجاه و قبل أن أدرك بأنني أهدق فيها باعجاب استدارت هي ناحيتي. في البداية لم تنتبه لوجودي و أطلقت شتيمة لاذعة و بعدها التقيت عينيها اللوزيتين الزرقاويين و قد تفتنت الى أنني أغرق فيهما. وضعت آلة التصوير في محفظتها و خطت ناحيتي لتجلس بجانبني دون أن تتكلم. للمرة الأولى أرتبك في حضور فتاة و فرت الكلمات مني مسلمة اياي الى الحرج. أنهت الفتاة غرابة اللحظة بقضم قطعة من الخبز الذي كنت أحمله في يدي. لم أستطع منع نفسي من الضحك و قررت فتح محادثتها معها فقد كنا وحيدين في ذلك المساء. بدون مقدمات وضعت زهرة دوار الشمس خلف أذنها بعد أن أزحت خصلات من شعرها الذي كان يفوح برائحة عشبة لم أستطع تذكرها في تلك الدقيقة. تفاجأت هي و سرعان ما أخفت ارتباكها بتثبيت نظرها الى قبة كاتدرائية سانتا ماريا التي كانت تبدو من بعيد كنجم عملاق يتموضع بين السماء و الأرض. لا يمكن أن أبقى وحيدا لهذه الليلة علاوة على أنني شربت الكثير من الكافيين اشباعا لرغبتني الغبية في تذوق القهوة الايطالية من كل مقهى أصادفه. تنحنت قليلا و افتتحت الحديث باللغة الانجليزية:

- كانت شتيمة لاذعة لهبة ريح أرادت اختلاق هذه الصدفة الجميلة بيننا. أرجوك لا تخبريني أنك لعنت الريح لأنه أفسد صورة التمثال هذا؟

- تتحدث عن منحوتة داوود كقطعة حجر عادية؟ التمثال ينضح بالجمال في كل طبقة و لون رغم أن الرخام الذي نحت منه كان من أسوأ الأنواع و قد تخلى عنه عديد النحاتين. انه يخبرنا قصة عن التحدي و الاصرار فضلا عن الاثارة التي تخلقها رؤيته فينا و....

- اسمعيني يا آنسة... ان كنت بصدد تقديم معلومات عن المنحوتة, أؤكد لك أنني أحفظها عن ظهر قلب لأنني طالب هندسة كما درست الفنون في مدرسة خاصة. لكن على عكس طلبة الفنون أنا لا أفهم شيئا في لغة اللوحات أو التماثيل و لا أرى جمالها كما ترونه أنتم. جمال الآثار بالنسبة لي يتشكل من الزمن. لو لم تمض قرون على هذه المنحوتة و لو لم نقرأ عن مايكل أنجلو بعد كل هذه السنوات الغابرة لما كنا لنفتتن لهذا الحد بأعماله. هل تعتقدون أن الناس انبهروا بالتمثال حينها بنفس درجتنا؟ هل تظنن أن الناس كانوا مغرمين بفلورنسا كما نحن اليوم؟ الحكاية كلها متعلقة بالتاريخ الذي عاشته هذه المنطقة و مختلف أطياف البشر الذين ضمتهم. في يومنا هذا توجد العديد من اللوحات و التحف الفنية و لكننا لا نسمع عنها الكثير كما نسمع عن تلك القادمة من غابر الزمن لكن في المستقبل البعيد سنتنظر الأجيال القادمة باعجاب كبير الى لوحات اليوم. نفس الشيء بالنسبة الى الأعمال الأدبية. هل ترين أن الأعمال الأدبية في الوقت الراهن كفيلا بمنافسة تلك التي كتبت في الماضي؟

- ربما... ولكن أن تعتبر العامل الزمني المعيار الأساسي للجمال ظلم كبير للمواهب و للجمال كمفهوم قائم!
- قد تكونين مصيبة يا أنسة. لكن لا أعتقد أن الصدفة جمعت بيننا للتحدث عن الجمال و معاييرها؟ لكنتك تخبرني أنك ايطالية فهل أنا مخطئ؟
- لا يا سيدي. أدعى روزا كونتي , طالبة فنون في أكاديمية فلورنسا للفنون. ماذا عنك سيدي المهندس؟
- هههه. أدعى أحمد زواغي و أنا طالب هندسة معمارية من الجزائر. أحضر مذكرة الماستر و أنا هنا في بعثة دراسية.
- لاحظت بعض الاضطراب يعلو وجه روزا و سرعان ما بادرتها بابتسامة مريرة و قلت:
- لا داعي للخوف يا أنسة فلست اراهابيا ينوي قتلك أو تفجير الساحة كما تعتقدين.
- احمرت وجنتا روزا كبراعم الورد و أخذت تتلاعب بشعرها ارتباكاً و تنظر الى النجوم التي زينت سماء فلورنسا:
- لم أخف يا سيد أحمد كونك عربيا أو مسلما. فقط لم يتبادر الى ذهني أنك عربي بسبب لكنتك الممتازة. ظننتك انجليزيا.
- أتعلم اللغة الانجليزية منذ فترة طويلة جدا.... هذا كل ما في الأمر. و لا داعي لانكار خوفك غير المبرر فقد صار من المسلم به أن يخاف البشر من بعضهم دون سبب واضح في هذا العصر المجنون.
- اسمك من الأسماء المتعددة لنبيكم محمد, أليس كذلك؟
- محاولة جيدة لتغيير الموضوع! نعم اسمي أحد أسماء نبينا و أغلبية المسلمين تطلق هذا الاسم على الذكور. حسنا, ما رأيك أن تأخذيني الى مقهى يقدم قهوة جيدة لأحكي لك عن نبينا؟
- اممم حسنا. مقهى ديتا لا يبعد كثيرا عن معرض أوفيزي و يقدم قهوى لذيدة.
- كان المشهد تماما مثل تلك التي يتحدث عنها الشعراء. سماء مرصعة بالنجوم, هواء صيفي منعش, روائح زهور و معجنات عديدة يستنشقتها شابان يتناولان البوظة الايطالية الشهيرة و يبتسمان. استقبلنا المقهى بجوه الحميمي الشبيه بالمنازل الايطالية القديمة و انزويت أنا و روزا في ركن حول كوبي قهوة. أخبرتها أن هذا كوبي الخامس وضحكت هي لما عدته جنونا من طرفي. تحدثنا كثيرا عن فلورنسا: تاريخها, أسرة ميديشي, الفنانون و حكايات من التراث. كانت تنتقل من حكاية إلى أخرى بسلاسة, و كتموجات معزوفة بيتهوفن " لأجل ايليزا " نجحت روزا في رسم تعابير متعددة على وجهي . توقفت عن الحديث و احتوت نظراتي في لبح عينيها العميق و وجدت نفسي دون سبب أحدثها عن كل شيء. انتهجت روزا أسلوبا منظما في الحديث و اخترت أنا الفوضى. حدثتها بداية عن الرسول محمد عليه الصلاة و السلام ثم انتقلت إلى شاعري المفضل محمود درويش و الأصوات التي ترافقتني في صباحي و ليالي كفيروز, ريم بنا, و فرانك سيناترا. حدثتها عما أقوم به في وقت فراغي و بسرعة عدت للحديث عن التاريخ. أخبرنا صاحب المقهى بأنه سيغلق فانصرفنا مندهشين للسرعة التي مضت بها الساعات. لم أكتف من الحديث إليها و شعرت بتعطشها لسماع المزيد. فكرتها الجنونية تضمنت العودة مشيا إلى جسر بونتي لمواصله الحديث و جنوني المولود حديثا وافق على فكرتها بسرعة. كان وقع أقدامنا إضافة إلى ترنج بعض السكارى الأصوات التي تهدد فلورنسا في ليلتها الشاعرية هذه. كانت روزا تمشي إلى جانبي تتلقف كل كلمة أخبرها بها عن التاريخ العربي. في منتصف الحديث قاطعتني و سألتني عن المدينة التي أقطن فيها. كيف لي يا ترى أن أختصر مدينة قسنطينة الجزائرية في كلمات انجليزية؟ لا يمكن لأي كان الحديث عن قسنطينة بلغة بسيطة. وصلنا أخيرا إلى الجسر وقد كان خاليا باستثناء مشرد غارق في النوم. طلبت منها أن نفرش

الأرض حتى يتسنى لي الحديث عن مدينتي. جلست بحماس طفل صغير لقصة ما قبل النوم و بقيت تحقّق في وجهي منتظرة البداية. الحديث مع روزا يجد بدايته حين يقرر صاحبه الغوص في عينيها و هذا ما فعلته.

- قسنطينة واحدة من أقدم المدن في العالم , أقدم من فلورنسا. ولك أن تتخيلي جمالها إذا ما حددت مثلي الزمن معيارا أول للجمال. كانت تعرف بسيرتا إلى غاية قدوم الامبراطور الروماني قسطنطين فوُجعت في حبه و اشتقت اسمها الأبدي منه. تمثاله لا يزال منتصبا في قلب المدينة مذكرا الجميع بقصة حب أدرجت في سجل الحضارة. سيرتا لم تكن حبيبة عادية, كانت حسناء تستمد جمالها و قوتها من صخرها العتيق الأمر الذي جعل الجميع يقع في حبها. النوميديون, الرومان , الفاتحون العرب, العثمانيون, الأندلسيون و اليهود. إذا ما زرت قسنطينة يوما يا روزا فستحبينها بجنون و سيطاردك الشوق إليها كلعنة أبدية. جسورها , تماثيلها , أزقتها الضيقة, حماماتها العثمانية و شوارعها التجارية... كل هذه الأماكن تنطق بالسر و تروي أساطير تعاقبت عليها. بإمكان شاعر إنهاء قصيدته و فنان إنهاء لوحته بمجرد تأمل جسر من جسورها المعلقة. لطالما اعتقدت أن فلورنسا و قسنطينة أختان فرقت بينهما الجغرافيا فقط.

- أتقصد أنك لا تشعر بالغرابة هنا؟

- مطلقا يا روزا. حقيقة أرى أنه من الغريب أن يشعر شخص ينتمي إلى المتوسط بالغرابة. نتشارك التاريخ و الجغرافيا إضافة إلى أجزاء عديدة من الثقافة و الفن. دول المتوسط تشاركت على مدى العقود حضارات غنية نباهي بها اليوم. العديد من الاختلافات متواجدة كالدين و اللغة و من الأجدر أن تكون عوامل تزيد في ثراء المتوسط لا العكس. هناك العديد من المسائل العالقة التي يمكن أن تحل بقصة واحدة من تاريخنا المشترك أو مقطوعات موسيقية من الضفتين. لا أحس بالغرابة بدرجة كبيرة لأن بلدي يطل على بحر شهد أكثر مما رأيناه أو نعرفه. نحن فقط نتعمد الجهل و نعمي أبصارنا عن الحقيقة المرمية أمامنا: المتوسط الأب الروحي لأبناء الضفتين.

للمرة الثانية وجدت نفسي أحدث روزا عن عائلتي التي تعيش ببساطة أقرب إلى الفقر و كيف أن الجميع ينتظر مني أن أكون مخلص العائلة. حدثتها أيضا عن الليالي التي نمت فيها دون عشاء لأجل إخوتي و كيف اكتفيت بمنظر جسر باب القنطرة كلقمة لتلك الليالي الشتوية الباردة. حدثتني هي عن عائلتها التي يجتمع أفرادها على مائدة العشاء فقط و كيف أن كل ما يعرفونه عن بعضهم لا يتعدى تاريخ الميلاد و الاسم. أو شك حديثنا على النهاية و بدأت الشمس تنهض من مخدعها لتظهر أولى ملامحها على صفحة الماء و كأن قرص الشمس اختبأ هناك ينتظر توقفنا عن الحديث. نظرت إليها و لا أعرف ما نطقت به عينايا لأن وجهها صبغ بحمرة شديدة. برفق حملت يديها بين كفي و همست بكلمات شاعري محمود: " لا أريد من الحب غير البداية." اخترقت عيناها بصري مجددا و همست " كلمات جميلة " و بسرعة جذبتها ناحيتي و رددت: بدايتنا أجمل.

لم أنتظر كثيرا و بمجرد بزوغ الشمس خطفتها بقبلة. كزهرة هشّة ارتعشت روزا بين يدي للحظة ثم انصاعت لقبلي التي عبرت عن حب صادق و شوق طويل قادم و مستقبل مجهول. غادرنا الجسر ليمضي كل إلى وجهته. هي إلى البيت الذي تستأجره و أنا إلى الجزائر. قبل أن أشيح بوجهي , ارتمت روزا في حضني و وجدت نفسي أطوقها من جديد. بصوت محتقن بالدموع قالت: للمرة الأولى أحب بصدق, شكرا أحمد.

غادرت فلورنسا و تركت جزءا من قلبي أسير قلب فتاتها بعد أن طلبت منها أن نتواصل كما فعل العشاق القدامى. وافقت دون استفسار أو اعتراض و تركتني أودع سعادة ليلة انعكست في عينيها.

من أحمد إلى روزا:

قرأت كلماتك العبقة بهواء توسكانا النقي و أنا أتشم هواء الفجر في سيرتا و من خلال الحبر الأسود تسنت لي رؤية روحينا و هما تتعانقان في لهفة. علي أن أعترف أن الحياة بعيدا عن شعرك الكستنائي و شفاك القرمزية أصعب بكثير مما توقعت و لكنني أجد العزاء في الصورة التي التقطناها بالقرب من داوود. مع أسفي التام حبيبي، لا أستطيع الإجابة على أسئلتك على هذه الورقة الكئيبة. سأجيبك عنها إذا ما أتيت إلى قسنطينة. ابتزاز فظيع و لكن قلبي يشفق فهل يمكنك لومه؟

عاد إلى حبيبيك أحمد مذاق تلك القبلة فتعالى لتطعمي جائعا.

"بعضي لدي و بعضي لديك....و بعضي يشناق لبعضي فهلا أتيت؟"

محمود درويش

لحظة لن تتكرر مجددا كما يخبرني حبيبي أحمد. نحن جالسان الآن بالقرب من تمثال العذراء التي يسميها أهل المنطقة " ما مريم ". على غير بعيد توجد المقبرة اليهودية و مسجد الايمان. الديانات الثلاث وجدت في حي واحد لتذكر الجميع بتعاقب الحضارات و اختلاف الديانات التي عاشتها سيرتا. أنهى أحمد ما يشبه محاضرة عن ضرورة الاختلاف و التنوع للحفاظ على حضارة المتوسط الممتدة على قرون. لم أشأ أن أخيب أمه و أخبره بأن أحلامه كثيرة و تتناول على سقف الواقع فقد كنت سعيدة كوني بجانبه أشراكه تطلعاته. استدار أحمد ناحيتي و ناولني حبة أخرى من حلوى قسنطينة المشهورة " الجوزية " و التي لم أستطع التفكير في حميتي الغذائية بمجرد رؤيتها. الكثير من الخضرة , الدفء, الصخور و الديانات تحيط بنا لتخلق نوعا من السلام الداخلي. أتى بي أحمد إلى هنا من أجل الإجابة على سؤالين في رسالة مضى عليها أكثر من شهرين. أراح بوجهه عني و أخذ يتأمل منظر الجسور التي بدت كنقطة بعيدة يصعب الوصول إليها و شرع يتحدث بلكنته الممتازة التي أتذكرها أكثر من أي شيء آخر:

- سؤالك الأول يا روزا سخي ف جدا و لم أتوقعه منك. القلب لا ينتقي حين يتعلق الأمر بالحب, يقع عشوائيا ضحية للصدفة الخالية من الانتظار كما يرى درويش و كما أرى أنا أيضا. بالنسبة لموافقتك على التواصل بالطريقة البدائية كما أسميتها فأنا أعتبر الأمر عاديا. المرء يتنفس الأكسجين طيلة حياته لكن حين يكون أسيرا للحب فانه يتنفس الغباء. و كلانا يتنفس الغباء حاليا.مع ذلك لا يمكنك انكار ذلك الاحساس الذي يخلقه انتظار رسالة من ضفة المتوسط.

رفعت حاجبي اندهاشا للإجابة التي انتظرتها لأكثر من شهرين و لكنه ابستم و أخبرني أنها الإجابة الوحيدة المتوفرة في جعبته. فركت يداي في عصبية و قررت اخباره برأي عائلتي في علاقتنا التي كان من الواضح أنها لن تكون مستساغة. أخبرته عن اعتراض عائلتي بأكملها عليه كونه عربيا مسلما. تقدم نحوي ثم وضع رأسه على حجري وواصل تحديقته في الشمس.

- روزا, توجد اعتراضات من ناحية عائلتي أيضا و كلها بسبب المعتقد و الثقافة. لكنني أتبع قاعدة مولانا جلال الدين الرومي حين قال: " ليس العاشق مسلما أو مسيحيا أو جزءا من أي عقيدة. دين العشق لا مذهب له لتؤمن به أو لا تؤمن " و أنا من المؤمنين المخلصين عزيزتي. فراقى لك لاعتراضات أشخاص لا يفهمون لغة الحب يعني الكفر بكافة مبادئ الانسانية التي اعتنقتها. روزا أتيت بك إلى سيرتا و إلى مكان مرت به ثلاث ديانا لا لأجيب عن أسئلتك بل لأخبرك أن حبنا الذي ولد في ليلة فوضوية سيصارع كل شيء ليعيش أياما جنونية طويلة, هنا في المتوسط. لقد تذكرت جملة أخرى لدرويش....

- إن قلت جملة أخرى له فأعدك بخيانتك و الوقوع في حبه هو.

لم أنتظر ردة فعله و انحنيت مباشرة لتلتقي شفاهنا في قبلة مجنونة محت مخاوفنا, قتلت شوقنا, و شرعت ترسم مستقبلا قد يكون رواية تنتظر شهوة قلم و شغف كاتب.

- تمت -